

مقدمة

حياة الفاتح وإدارته

ولد السلطان محمد الفاتح بأدرنه ليلة السبت الموافق السابع من رجب سنة ٨٣٣ ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية (١) وهو نجل السلطان مراد الثاني من أعظم سلاطين آل عثمان وحفيد السلطان محمد چلبى الأول مجدد بنيان الدولة العثمانية ومنشئها الثاني بعد نكبة تيمورلنك التى منيت بها البلاد عقب هزيمة بايزيد الأول فى معركة أنقره . والدته السلطانة خديجة عليمة (٢) كريمة

(١) اختلفت روايات المؤرخين فى تاريخ ميلاد محمد الفاتح فى سنة ويومه فأرخ صاحب الشقائق ميلاده فى سنة ٨٣٥ هـ ، وأرخه على مؤلف كنه الأخبار فى ٧ رجب سنة ٨٣٤ هـ ، وأما التواريخ فى ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ ، واعتمد المؤرخ جودت (باشا) من بين هذه الروايات التاريخ الذى اخترناه ويؤيده ما ضبطه أكثر المؤرخين من تاريخ جلوسه ومدة عمره .

(٢) وكذلك تضاربت أقوالهم فى والدته : قال بعض المؤرخين مثل هامر انه ولد من جارية ولم يذكر اسمها ، ورواية أخرى تقول : والدته سيدة اسمها « هـا » فالصحيح هو الذى اخترناه فى المتن استناداً الى بعض الدلائل والقرائن ، ويرى رأى نفسه بعض مؤرخى الترك مثل احمد رفيق (بك) فى كتابه المسمى « الترك امام يزناس » .

والامر المحقق ان والدته الفاتح سيدة مسلمة ، ومن الغريب ادعاء كونها مسيحية استناداً الى « فرمان » مؤرخ سنة ٨٦٣ هـ مزعوم الصدور من الفاتح ومشتعل على العبارة الآتية : « سيدة الحوائين »^(*) المسيحية والدتى حالا السيدة دسينا » ويدل على عدم صحة هذا الادعاء أمران :

(*) جمع خاتون ومعناها سيدة محترمة كبيرة المقام .



الكتابة العربية التاريخية على باب ضريح والده الفاتح في بروسه

أولاً — ان طغراء [= طرة] هذا الفرمان ليست لمحمد الفاتح ييقين .
ثانياً — ان والدته الفاتح توفيت الى رحمة الله تعالى قبل سنة ٨٥٣ هـ اى قبل تاريخ صدور الفرمان المزعوم بأكثر من عشرين سنة ودفنت بمدينة بروسه العاصمة الاولى للدولة العثمانية وضريحها هناك فى حي « مرادية » وقد كتبت على باب الضريح العبارة العربية الآتية فى ثلاثة أسطر :

السطر الأول : « الحمد لله بنيت هذه التربة النورة فى أيام مولانا السلطان الاعظم والخان المعظم السلطان بن السلطان مراد خان بن محمد بن بايزيد خان خلد الله السطر الثانى : « ملكه بأمر ولده وقره عينه ميمى رسول الله صلى الله عليه وسلم السيد النقيب السلطان محمد جلبى اربط الله أطناب سلطان دولته بأوتاد السطر الثالث : « الخلود وشيد أركان عزه إلى اليوم الموعود لوالدته المرحومة سيدة الخواتين طاب ثراها . ووافق الفراغ فى رجب الفرد من شهور سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . »

يفهم من هذه الكتابة التاريخية التى لا يتطرق الى صحتها أى شك ، فهماً قاطعاً مبلغ ضعف الروايات القائلة بأن والدته الفاتح كانت مسيحية أو فرنسية أليس كذلك ؟

قال هامر حين ذكر المباني القائمة حول مسجد الفاتح المعروف باسمه : « هناك حول المسجد وفى وسط دائرة تبعد عنه قليلاً تشاهد مجموعة مباني تتألف من سبيل وحمامات ودار كتب ومدرسة للحديث وحوش مشتمل على قاعة وضريح وضريح السلطانة عليمة والدته الفاتح بالقرب منه » ولكن نظراً الى كتابة بروسه الآتية يجب أن يكون هذا غير صحيح .

إسفنديار بك من أسرة الإسفنديارية (١) .

نشأ محمد الفاتح في بيئة طابعتها متانة الخلق ومن جيل سمته صفاء السريرة ونقاؤها . وعنى بتربيته وتعليمه عناية بالغة تحت إشراف أساتذة على مستوى رفيع من العلم والخلق (٢) .

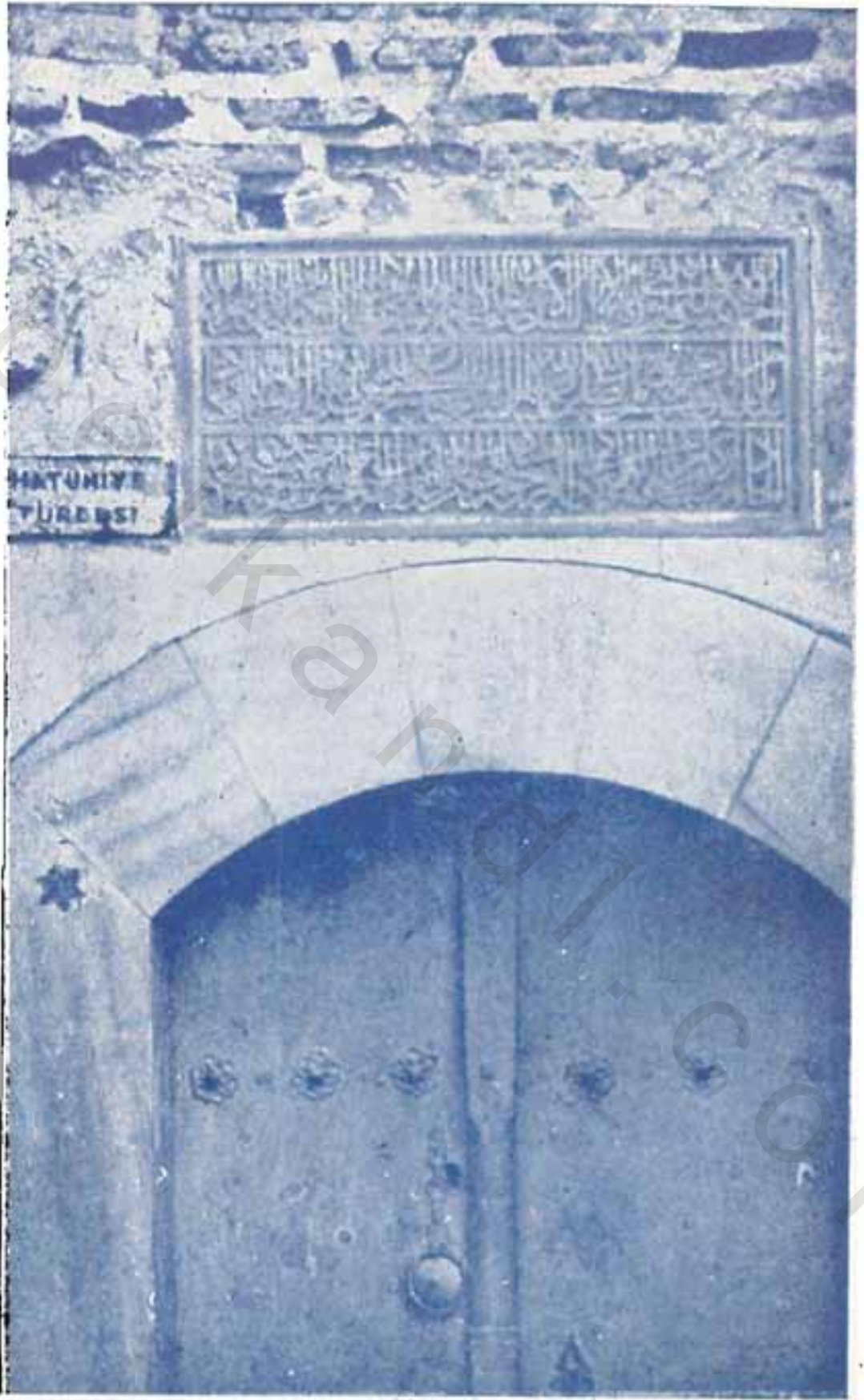
جد في طلب العلم واكتساب الفضائل الى سن الحادية والعشرين فتفتحت مواهبه الفطرية وتفتح ذهنه واتسع افق تفكيره فأثبت بذلك أنه خليق أن يكون نجلا نجيبا لسلطان عظيم عادل مثل السلطان مراد الثاني كما أثبت أن هذا الشبل من ذاك الاسد . وأجلى دليل على نجابته تلك الحياة الزهية الرزينة التي أمضاها في مغنيسيا (٣)

كان محمد الفاتح المتربى تربية اسلامية يدرك انه سيجلس يوماً على عرش السلطنة العثمانية ويقدر المزايا والقيم التي تمس الحاجة إليها في ادارة الدولة

(١) الإمارة الاسفنديارية هي إحدى الإمارات التي قامت على أطلال الدولة السلجوقية وكانت تحكم مقاطعة قسطنطين ومدينة سينوب على ساحل البحر الاسود وكانوا يزعمون انهم من سلالة خالد بن الوليد رضى الله عنه . وقد ألحقت بلادهم بالدولة العثمانية في عهد الغفور له محمد الفاتح . وآخر أمير منهم هو الأمير « قزل احمد » [احمد الاحمر] .

(٢) أساتذة الفاتح : ابن تمجيد ، المولى الكوراني ، المولى خسرو ، المولى زيرك ، خواجه زاده ، ولى الدين زاده احمد ، خطيب زاده ، حسن السمسوني ، سنان باشا . تلقى عنهم شتى العلوم والمعارف .

(٣) مغنيسيا مدينة تاريخية بالأناضول ألحقت بالبلاد العثمانية في عهد السلطان بايزيد الاول الملقب بيلديرم [اى الصاعقة] وأصبحت بعد ذلك مقراً لاقامة الامراء العثمانيين فاقام بها السلطان مراد الثاني ونجوله الفاتح والسلطان مراد الثالث وغيرهم . وقد اكتشف معدن « المغنطيس » بجوارها فسمى باسمها .



منظر لضريح والده السلطان محمد الفاتح من الواجهة

ويعمل جاهداً على اكتساب هذه المزايا حتى يكون أهلاً لشغل هذا المقام السامى من جميع الوجوه .

وقد آنس منه والده العظيم القدرة على تصريف شئون الدولة والجدارة الذاتية بولاية الحكم . فالتقى اليه مقاليدته وهو لما يتجاوز سن الثالثة عشرة (١) والا فغير معقول من رجل حكيم بعيد النظر معروف بوطنيته مثل السلطان مراد الثانى أن يترك إدارة دولة عظيمة إلى شاب غر عاجز ، وان فى قيام الفاتح بحسن ادارة الدولة مدة تربو على سنتين مستقلاً برأيه وتديره ، أوضح دليل على كفاءته الذاتية الممتازة وصدق فراسة والده العظيم فيه .

قد يقول قائل إنه كان يدير شئون الدولة بتوجيهات الوزراء مثل خليل باشا وغيره فنقول كلا . فان الشكاوى التى كانت ترفع الى والده بعدم استماعه لمن حوله من النصحاء والمرشدين ، تدل على انه كان يعمل برأيه .

وأما عودة والده الى الحكم ثانياً فليست من عجز الفاتح وإنما كانت مجرد حيلة اتخذت بسبب الحادث المعروف تفاصيله فى التاريخ وهو هجوم ملك المجر على البلاد العثمانية على رأس جيش صليبي ناقضا العهد وخارقا معاهدة الصلح المعقودة بينه والدولة وذلك بتغدير الكردينال « سيزاريني » مندوب البابا وتفهميه لملك المجر ان عدم رعاية العهود مع المسلمين لا يعد حشاً ولا نقضاً . ففى مثل هذه الظروف الطارئة رأى السلطان مراد ان يعود الى الحكم تلبية لداعى الوطن واستجابة لنداء الوزراء لكيلا يستغل العدو حداثة من الجالس على العرش . وبعد أن انتصر على العدو فى موقعة « واران »

(١) ولا يحوز ادعاء عدم أهليته الشرعية لكونه دون سن الخامسة عشرة حين توليه الحكم فان الخمس عشرة سنة هى الحد الاقصى للبلوغ . ويثبت البلوغ قبل هذه السن فى الغالب .

عاد إلى عزله ولكنه إزاء بعض الحوادث وفئته عساكر الإنكشارية
والحاج الوزراء لم يجد بدا من العودة إلى الحكم .
ولما جلس الفاتح على عرش السلطنة مرة أخرى في المحرم سنة ٨٥٥هـ كان
عالماً وجامعاً في نفسه كل ما يجب توافره فيمن يتولى الحكم من الأوصاف
والمزايا (١) .

تلقى الفاتح في حياة والده العلوم الإسلامية من كبار الأساتذة مع سائر
العلوم والمعارف التي تتطلبها إدارة الدولة وعرف كيف يتحمل تبعات الحكم
وينهض بأعباء الملك ودرس سياسة الدولة الداخلية والخارجية .
وكان يعنى بمطالعة كتب التاريخ ويدرس حياة كبار الملوك والأبطال
وفتوحاتهم ويقرأ سير القياصرة وقسطنطين الأكبر وتودوسيوس الكبير

(١) يروى المرحوم أحمد راسم بك في تاريخه عن المرحوم نامق كمال بك ما يأتي:
لما تولى والده السلطان مراد الثاني مقاليد الحكم ثانياً عاد محمد الفاتح مخلوعاً
إلى « مغنيسا » حيث مقر عمله الأول وهو متأثر من الدرس القاسى الذى تلقاه
ولا سيما من نفي واهانة زاغنوس باشا (*) ولئن كان هذا الحادث [يعنى خلعه] نعمة
لشخص الفاتح فإنه يعد نعمة عظيمة للدولة فإن الخطوب والمحن لهى المدرسة العليا
يتلقى فيها الافئذاء ألواناً من دروس التجارب والمبر يتخرجون فيها أكمل ما يكونون
دربة واستعداداً لمواجهة الحياة . وكذلك كان هذا البطل فقد أفاد في الفترة الطويلة
التي قضاهها مخلوعاً ومعتزلاً لامن مدرسة الخطوب والمحن فحسب بل تلقى من العلوم
والمعارف قسطاً وافراً كسأه حلة العلم فوق رداء الحكم . ومن آثار هذه العزلة ان
تعلم اللغات العربية والفارسية واللاتينية والعبرانية فكان من ثمره هذه المعرفة
الواسعة أن وقف على بواطن الأمور ودخائل السياسة في الشرق والغرب .

(*) كان زاغنوس مخلصاً للفاتح أثيراً لديه ولما خلع من الحكم عزل هو أيضاً من منصبه
ونفى إلى « باليكسر » وعندما تولى الفاتح الحكم مرة ثانية نضاعف نفوذ المتحدث عنه وأصبحت
له منزلة سامية وكلمة نافذة .

وتسترعى اهتمامه بصفة خاصة شخصية اسكندر الاكبر المقدوني ويجد في نفسه مزاياه من القوة ومضاء العزم ونفاذ الارادة (١) ،

كان محمد الفاتح عالماً كبيراً في العلوم الشرعية ومحباً لساائر العلوم والفنون كاللوسيقى والرسم ويتذوق الادب والشعر ولم يكن يخلو من درس الفلسفة وعلم الفلك بعناية خاصة من حين إلى حين .

وكانت حياته بسيطة جداً ، وكانت هوايته في قراءة الكتب والتدرب على فن القتال ، واذا وجد متسعاً من الوقت خرج للصيد والطراد . وكان عزوفاً عن الشهوات والملذات ومجتنباً عن المنكرات وكانت مائدته تمتاز بالبساطة والخلو من الندماء والمشروبات الروحية بأنواعها وكان يكره الاختلاط المبتذل ويعيش في عالم نفسه إما في جو علمي او في ميدان الجهاد والقتال .

كان رحمه الله يجد متعة روحية في النقاش العلمي وهو أكثر من يتلذذ من المناقشات العلمية من بين سلاطين آل عثمان . وبما أنه عالم كبير كما سلفت

ومن آثار هذه العزلة ايضاً ان اتم دراسة العلوم الشرعية والعقلية ، اصولها وفروعها ، فكان من ثمرة هذه الدراسة الشاملة ان عرف كيف يؤسس دولة متحضرة لم يشاهد نظيرها في تلك العصور . وأحدث تعديلاً في القتال وابتكر خطاً وأسابيل تعد نواة لما يشاهد الآن من الرقي »

(١) يقول المؤرخ كاريو وولوس :

« كان السلطان محمد خان وريث دولة عظيمة وصاحب مالا يحصى من النقود والاسلحة والجنود وحاكم اجمل بقعة في قارتي آسيا واوربا واكثرها عمراناً ومع ذلك كله لم يكن يكتفي بما تجمع في يده من هذه القوى المادية بل كان يحول بأفكاره في آفاق أوسع ويتخذ من امثال اسكندر وپومير ويوليوس قيصر قدوة له »

ترجمة كاروليدى نائب از مير سابقاً

الإشارة إليه فكان يؤثر العلماء ببالغ عطفه وكرم رعايته ويطلب إليهم مناقشة المسائل العلمية بحضرته ، وقد يشترك في النقاش وفي أثنائه يخلع عن نفسه رداء الحاكم ويلبس شعار العالم ويعمل كمعضو علمي في مجلس علمي ، وكان خضربك ، وخواجه زاده ، والمولى خسرو ، والمولى السكوراني ، والمولى زيرك ، وعلى القوشجي ، وعلاء الدين علي الفناري ، وامثالهم من كبار علماء عصره - ندماءه في العلم والفلسفة وجلسائه في الادب والعرفان ، وكان قد يذكي النقاش ويجد لذة كبيرة من الآراء التي يسفر عنها صدام الافكار في اثناء البحث الدقيق والنقاش العميق (١) .

كان رحمه الله رقيق القلب معروفاً بالرحمة والشفقة والعفو والصفح ، ولم يكن في طبعه عنف ولا قسوة ، وحسبنا دليلاً على مبالغ عطفه وأريحيته ان نذكر ما أنشأه من المطاعم الخيرية والمستشفيات ودور الضيافة ، وما أغدق على الايتام والارامل من العطايا السخية ونظاع على وقفيات هذه المنشآت الخيرية .

واما ما كان يحنح اليه من الشدة في ادارته ، وعمله الرسمي فكان من مقتضيات الحاليتين الروحية والسياسية السائدتين في ذاك العهد ، وما سبقه من الاحداث المؤسفة والصدور التي تغلّى فيها مراحل الحقد والثأر . ودولة يسيطر بها مثل

(١) ويحاول لي ان اتقل هنا الثناء العاطر الذي اغدقه على الفاتح المؤرخ المصري العلامة السخاوي مؤلف الضوء اللامع حيث قال في ترجمة الفاتح « . . . كان ملكاً عظيماً اقتفى أثره في المثابة على دفع الفرنج بحيث فاقه مع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته في لقاءهم وتعظيم من يرد عليه منهم واهدائه في كل قليل للحيوى السكافيه جي مع مكاتبانه الفاتكة والخفاضه عن أبيه في المذات وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع . . . » الضوء اللامع ج ١٠ ص ٤٧ .

هذه الظروف لا تمكن ادارتها بغير الحزم ، وليس في وسع حاكمها ان يتجهج في ادارته غير سياسة الحزم والشدة .

وأما حادث خنق أخيه الرضيع الامير احمد ، فلا يزال يكتنفه الغموض في دافعه وفاعله ، فاذا حدث هذا الحادث المحزن بدافع الحرص على سلامة الوطن من ان ينقسم ويضطرب أمره فنسأل الله تعالى العفو والغفران . ومع ما في هذا الحادث وامثاله من القسوة والفظاعة يعده بعض المتفكرين تضحية كبرى بذلت لصالح الوطن .

وصفوة القول : لا يستطيع منصف ان ينسب الى محمد الفاتح ظلماً أو قسوة غير اعدائه ، حتى الذين دفعهم التعصب الديني أو القومي إلى التطوع للبحث عن عثراته والعمل على الخط من قدره ، لم يجدوا بالرغم عن كثرة بحثهم ما يشينه في نظرهم سوى حوادث تعد على اصابع اليد الواحدة طوال حكمه الذي استمر نحو ثلاثين سنة ونيف ، على أن بعض هذه الحوادث له من الأسباب الوجية ما يبرر وقوعه والبعض الآخر لا يزال يحتفظ بطابعه السري لم تكشف عنه الايام النقاب بعد . واذا تصورنا ما يرتكب الآن في العالم الذي اصطلحوا على تسميته بالعالم المتحضر من أنواع الظلم والأعمال الوحشية باسم العدالة وبواسطة المؤسسات الممثلة لها يتبين لنا ان محمدا الفاتح كم كان عظيماً وكم كان عادلاً رحيماً ذا شفقة ورقة .

كان المقياس عند هذا السلطان العظيم في معرفة اقدار الرجال الذين يعهد اليهم شئون الدولة انما هو الكفاءة واللياقة والاستقامة والعفاف ولم يكن يقيم وزناً لخير هذه المزايا وكان أعظم القيم عنده شأناً العدالة والعلم والعمل والنشاط والنزاهة والاستقامة .

ولم تكن ميزة الفاتح في مجال الثقافة والجندية ، بل كان صاحب كفاءة فائقة

في وضع القوانين ، ورجل ادارة من الطراز الأول فقد أنشأ دولة عظيمة واستولى على امبراطوريتين وعشر دول ومائتي مدينة (١)

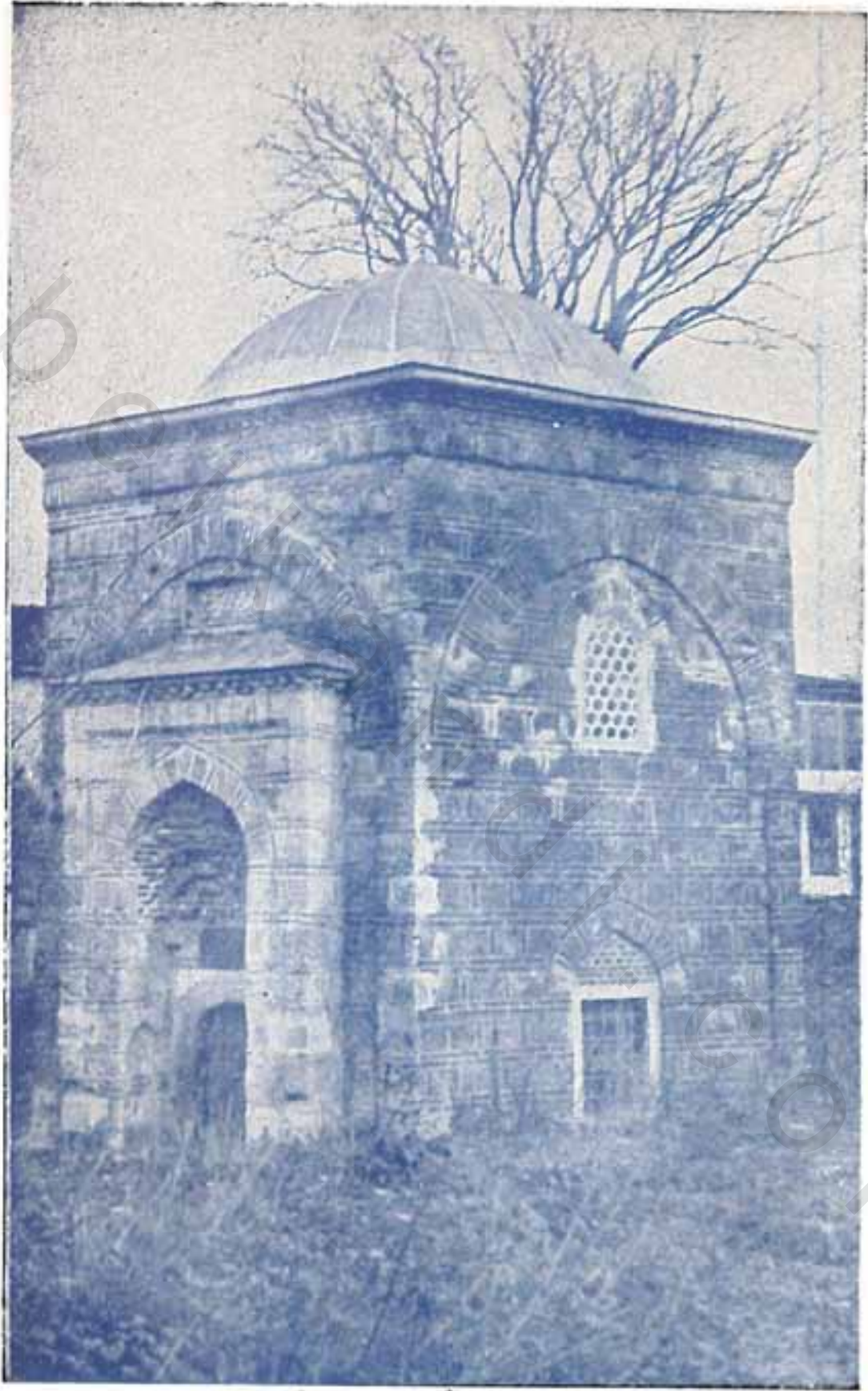
وضع النظم والقوانين وكفل للشعب التركي النصر في الخارج والأمن والاستقرار في الداخل . شهد العالم قبل محمد الفاتح كثيراً من الابطال والفاثين فتحوا كثيراً من المدن وأنشأوا دولاً ولكن لم يكن لأعمال أحد منهم حظ من الثبات والاستقرار مثلها كان لأعماله .

لم يقصر همه وهمته على فتح البلدان وتوسيع رقعة المملكة فحسب بل فعل كل ما من شأنه أن يضمن لدولة عظيمة بقاءها وامنها من العدوان واصابه التوفيق في توفير الاسباب المادية والمعنوية الكفيلة بهذا الغرض .

ادعى بعض مؤرخي الغرب المعاصرين للفاتح أنه لم يكن وثيق الصلة بالدين ، مستدلاً بسياسة التسامح التي انتهجها ازاء الكنيسة ، فهذا الزعم مخالف للحقيقة كل المخالفة ، فان محمد الفاتح كان شديد التمسك بدينه فكانت أمنيته الوحيدة التي ينشدها ويعمل على تحقيقها نشر عقيدة التوحيد والحفاظ على تعاليم الشريعة المحمدية والعمل على رقيها ، وكان يحمد الله تعالى ويشكره على ما يصيبه من توفيقاته الصمدانية فيما يباشره من الأعمال ، ويعطف على علماء الدين ويكرمهم اكراماً لم يسبق له نظير .

واما الامتيازات التي منحها الكنيسة ، فليس فيها اى شىء من المخالفة سواء للأحكام الإسلامية أو للسياسة العادلة التي كان يتوخاها في حكمه . فقد ذكر في الفقه الاسلامى الاحكام التي يعامل بها اهل الكتاب من غير المسلمين وانهم يتركون ودينهم مصونة ارواحهم وأموالهم واعراضهم لهم ما للمسلمين

(١) امبراطوريتى بيزانس وطرابزون ، ودول الصرب وبوسنة والبانيا ورومانيا والموره وقرمان وقسطنطين وغيرها .



ضريح والدة السلطان محمد الفاتح في بروسه

وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات ، فقد عاملهم الفاتح وفقاً للتعاليم الإسلامية وراعى عهد الذمة وطبق عليهم هذه الأحكام فى اليوم الثالث من الفتح . وفى ظل هذا التسامح الكريم عاش المسيحيون والموسويون وغيرهم من الطوائف غير المسلمة القاطنة فى بلادنا ... عاشوا آمنين مطمئنين متمتعين برغد العيش ورفاهية الحال ممارسين جميع حقوقهم ولكنهم مع الأسف الشديد لم يوفوا هذه المعاملة السمحة الكريمة بعض حقها من الشكر .

فاذا نظرنا الى هذا التسامح الاسلامى البالغ منتهى السمو وذكرنا المصير الاليم الذى آل اليه امر المسلمين بالاندلس فى الماضى ، وذكرنا أيضاً مايجرى الآن فى عصرنا المسمى عصر المدنية من ضروب الاضطهاد التى تعانيها الأقليات والأعمال الوحشية التى تستهدف لها الامم المظلومة وتتشعر من هولها الابدان ثم قارنا بين هذا وذلك ، وجدنا الفرق شاسعاً والبون بعيداً بعد السماء عن الأرض .

يقول أحمد رفيق (بك) فى كتابه «الغيرة الدينية والحب الوطنى فى سلاطيننا» :
« كانت الغاية المنشودة لسلاطيننا أن يخدموا الاسلام بسيوفهم ويفوزوا بشفاعته الرسول الأكرم فالأحاديث النبوية الواردة فى فضل الجهاد ، والمشوبة الموعود بها المجاهدون ، حفزتهم الى الجهاد ، وكانوا فى غزواتهم وحروبهم يراعون دين عدوهم ويصونون أرواحهم وأموالهم واعراضهم ، وللسلاطان محمد الفاتح قصب السبق فى هذا المضمار . »

لم تكن عناية محمد الفاتح بالعلم والثقافة بأقل من عنايته بشئون السياسة والحرب فقد بذء جميع سلاطين آل عثمان فى احترام العلماء ورجال الدين . وكان رحمه الله تعالى يدرك بنافذ بصيرته أن القوة المادية والحرية وحدها لا تكفل للامة السعادة والمجد ، فلا بد من دعمها بقوة العلم والايمان والعدل ، ولذلك كان يعمل دائماً ليجعل من وطنه العزيز موطناً للعلم ، ومجمعاً للعلماء والشعراء ، ومركزاً للعدالة .

ولهذا الفرض استقدم العالم الكبير والرياضي الشهير « علي القوشجي » من علماء ماوراء النهر مع أفراد أسرته وغمره بفيض من عطفه ورعايته حين وصوله (١). وعمل على تعميم العلم ونشر العدالة في طول البلاد وعرضها ففتح فيها المكاتب والمدارس حتى في أصغر قرية منها وأنشأ المحاكم في المراكز. كان رحمه الله يقرض الشعر في عدة لغات ، وله ديوان شعر تركي يسمى « ديوان عوني » (٢) وقد اشرنا اليه فيما سلف وننقل منه القطعة الآتية :

ساقيا مي صون كه برگون لاله زار ألدن كيدر
ايريشور فصل خزان باغ وبهار ألدن كيدر
غره اولما دلبرا حسن وجماله قيل وفا
باقى قالماز كيمسه يه نقش ونكار ألدن كيدر

ترجمتها

ياساقى الراح ناول الكأس ولسوف يحل يوم تنوى فيه الشقائق
ويحل الخريف ويدبر الربيع وينصرم البستان
وانت ايتها الحسناء الوفاء الوفاء لا تغترى بجمالك
فان الحسن والجمال زائلان لا يدومان لاحد

(١) وقد وضع الامتاذ الجليل الدكتور سهيل انور كتابا باللغة التركية سماه « علي قوشجي : حياتى ومولاتى » [علي القوشجي : حياته ومؤلفاته] تسكلم فيه باسهاب عن هذا العالم الكبير .

والكتاب مطبوع بمطبعة كنان باستانبول سنة ١٩٤٨ م

(٢) « عوني » اسم شعري لمحمد الفاتح وهو ما يعرف عند شعراء الترك والفرس بالتخلص او المخلص ، فكان الشاعر يختار اسمه الشعري من اسمه او من اسم حرفته وبلده وما الى ذلك .

كان يحدد لذة كبيرة في انشاء الشعر والاستماع اليه ويجزل العطايا للشعراء بدون تمييز بين جنسياتهم واوطانهم ، ولم تقف جوائزه عند حدود الوطن بل جاوزتها الى الهند وايران فشملت شعراءهما فانه كان يرسل راتباً شهرياً محترماً الى خواجه جهان شاعر الهند وجامي شاعر ايران .

انشأ في كل من بروسه وقسطموني مدارس لتعليم الشعر الفخائي وأجرى راتباً على ثلاثين شاعراً فأضحت المدن الكبرى مجامع الأدباء والشعراء . ومن الشعراء الذين فازوا بعطف الفاتح وتقديره الشاعر حمدي (١) ناظم قصتي يوسف وذيخا وليلى ومجنون على غرار ما نظمه جامي . والشاعر شهدي الذي بدأ ينظم التاريخ العثماني كما نظم الفردوسي تاريخ ايران ولكن عاجلته المنية قبل اتمامه . والكلشني وقد نظم نحو عشرين الف بيت في أسلوب « مثنوى » لمولانا جلال الدين الرومي . وإلهسي ملشي زاد المشتاقين ونتائج الارواح . ومن النساء الشاعرات الشاعرة « مهري » الآماسية (٢) وزينب القسطمونية .

وليس شعراء عهد الفاتح هم الذين ذكرناهم بل كان هناك مئات من الشعراء غيرهم ، وقد سجل لنا كتب التراجم الخاصة بالشعراء سبعة شعراء تولوا الوزارة في عهده . ونحن نترك تفاصيل هذا الموضوع الى من يكتب حياته الادبية .

(١) هو محمد حمدي بن العالم الكبير والصوفي الشهير الشيخ آق شمس الدين الذي شهد فتح القسطنطينية واكتشف قبر ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه

(٢) نسبة الى آماسية مدينة بالأناضول معروفة بجودة تفاحها وهي « خرسنة » الوارد ذكرها في قصيدة التنبي في مدح سيف الدولة :

حق أقام على أرباض خرسنة تشقى به الروم والصلبان والبيع

درج محمد الفاتح منذ صباه الباكر على اشباع نهمة من العلم والاستزادة من مختلف الثقافات وقد اختار من العلماء البارزين «خواجه زاده» (١) و«ابن الخطيب» (٢) مدرسين له وقرأ عليهما ما شاء من كتب السلف وأطلع أيضاً على مؤلفات العلماء المعاصرين وبحث آراءهم بدقة ونقدها نقداً علمياً.

(١) هو مصطفى مصلح الدين بن يوسف بن صالح البرسوى الشهير بخواجه زاده من كبار العلماء الذين أنجبهم الشعب التركي وموضع فخرهم قرأ عند المولى محمد آيا ثلوع [وهو من علماء عهد السلطان مراد الثاني وكان يعرف بجاي آيا ثلوع] الأصليين والمعاني والبيان ثم وصل إلى خضر بك وهو مدرس بالمدرسة السلطانية في بروسه فعين مساعداً [معيداً] له فاتم دراسته . وكان خضر بك يحله ويقدره تقديرأ عظيماً ومتى حدثت مشكلة علمية كان يقول : « ارجعوا الى العقل السليم » يعنى به صاحب الترجمة وقد فاز رحمه الله بتقدير الفاتح وعطفه في ظروف مختلفة ومناسبات شتى فأتخذه مدرساً لنفسه واسند اليه اعمالاً هامة وعينه قاضى عسكر الأناضول بعد المولى خسرو ثم قاضى استانبول وولى التدريس في مدارس مختلفة . والف بامر السلطان كتابه القيم « تهافت الفلاسفة » فقبول بتقدير واعجاب في كل مكان وله مؤلفات قيمة . توفي الى رحمة الله تعالى سنة ٨٩٣ هجرية ودفن في ضريح بالقرب من مدرسة امير سلطان في بروسه .

(٢) هو محمد محي الدين الشهير بابن الخطيب قرأ على والده المولى تاج الدين ابراهيم المدفون بمدينة «إزنيق» والطوسى وخضر بك . كان عالماً كبيراً طلق اللسان جرىء الجنان قوياً على المحاوررة فصيحاً عند المباحثة والمناقشة وكان عنه من الغرور وخشونة الطبع ما لا يتفق وما يجب ان يتصف به اهل العلم من التواضع ولين الجانب حتى انه بسبب غروره قد افق باهدار دم عالم جليل مثل المولى لطفي التوقاى الآتى ترجمته . وله مؤلفات قيمة . وقد شرع في التعليق على شرح الوقاية لصدر الشريعة ولم يتمه . مات سنة ٩٠١ هـ ودفن بالقرب من ضريح على القوشجى بمقبرة ابى ايوب الانصارى باستانبول .

كانت له مكتبة خاصة تحتوي كتباً قيمة جمعها وانتقاها باهتمام وعناية ، وعين المولى لطفى (١) اميناً لها بعض مدة . وكان رحمه الله يعنى بالعلم والتعليم والمعلمين والطلبة عناية بالغة الغاية ويهيئ لهم جميع وسائل التعليم ويوفر للطلبة أسباب المعيشة في اثناء الطلب لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن التفرغ للعلم . عهد الى وزيره الأول محمود (باشا) (٢) اصلاح نظام التعليم وكان محمود

(١) هو المولى لطف الله التوقاى من كبار علماء الرياضة قرأ على سنان (باشا) وتلقى الرياضة والهيئة من على القوشجى حين وصوله الى استانبول ودخل في خدمة السلطان محمد الفاتح بواسطة سنان (باشا) فاشتغل اميناً لمكتبته الخاصة بعض مدة ولما نفي سنان (باشا) الى سقري حصار سافر معه . وكان رحمه الله لا يبالي بتقاليد المجتمع يرسل نفسه على سجيتهما ويطلق لسانه على طبيعته وكأما يقول كما قال المتنبي من قبل :

وهان فما ابالى بالرزايا لانى ما انتفعت بأن ابالى

وغلب عليه روح المزاح والدعابة وكانت تصل دعابته الى درجة التجريح والايلام في بعض الاحيان وله دعابة مع الفاتح معروفة ذكرها سهى الادرنهوى في تذكرته . ولما توفي الفاتح لقي من ابنه السلطان بايزيد العطف والرعاية فعينه مدرساً في بعض المدارس ولـكثرة فضائله حسده افرانه ولاطالة لسانه اتهموه بالاحاد والزندقة فاعدم سنة ٩٠٠ هـ بفتوى ابن الخطيب المتقدم ذكره . ف وقعت جملة « لقد مت شهيداً » تاريخاً لوفاته بحساب الجمل . وله حاشية على شرح المطالع والمفتاح للسيد وشرح جزء من البخارى والف رسائل كثيرة في موضوعات شتى . ومدفون بمقبرة ابي ايوب الانصارى في استانبول .

(٢) محمود (باشا) من اصل كرواى [وفي رواية : ابوه رومى وامه من ايليريا] وقع اسيراً في يد محمد آغا من رجال القصر في احدى الغزوات فأخذ الى القصر السلطاني لما بدا عليه من مخايل النبوغ والدكاء والحق بدائرة الخزينة السلطانية ثم بخدمة الأمير محمد [السلطان محمد الفاتح] تربى في القصر تربية عالية فحصل على قسط وافر من العلوم والفنون ولما جلس الفاتح على عرش السلطنة نصبه رئيساً =

(باشا) عالماً أديباً شاعراً وفي مركز يسمح له بالنهوض بهذه المهمة، فأنشأ في المدن الكبيرة مدارس عالية إلى جانب المسكاتب الموجودة في سائر المدن والقرى وسنقدم في الفصول الآتية بياناً عن هذه المدارس ومناهج الدراسة فيها (١) وكان محمد الفاتح يختار بنفسه العلماء الذين يتولون التدريس في هذه

= لعاكر الانكشارية ثم والياً على ايلالة الروملی وفي سنة ٨٥٧ هـ ولاه الصدارة العظمی [= رئاسة الوزراء] خلفاً لحلیل باشا فقام بحسن ادارة شئون الدولة مدة خمسة عشر عاماً وفي خلال هذه المدة قد اشترك في كثير من المعارك تارة بعمية السلطان واخرى قائداً عاماً . وتمكن من الحاق بلاد الهرسك بالبلاد العثمانية واتقصر على البحر وانقذ « لوفجه » وغيرها من المدن من يد العدو واستولى على جزيرة « مدالي » ثم عزل بسعاية محمد (باشا) الروم سنة ٨٧٢ هـ ونصب على سنجق « غاليبولى » وعهدت اليه في سنة ٨٧٣ هـ مهمة الاستيلاء على « اكريبوز » (*) فتجسس في مهمته . وابتلى بالاء حسنا في الحملة التي جردت على حسن الطويل فكوفىء بان عين صدرأ اعظم مرة ثانية ثم عزل لهم عزيت اليه ونفى - في رواية - الى « خاص كوى » بالقرب من ادرنه فأقام بها الى ان وافاه الاجل سنة ٨٧٩ هـ وهناك رواية اخرى بانه اعدم .

كان عالماً عاقلاً سياسياً محنكاً شجاعاً متقدماً محباً للعلم والعلماء ، وقد ألف باسمه كثير من الكتب العلمية وله مسجد عظيم ومدرسة وحمام في الحى المعروف باسمه باستانبول . وكذلك له مسجد ومدرسة في « صوفيه » ومنشآت خيرية كثيرة من مساجد ومكاتب وقناطر في بعض المدن التي فتحها في الاناضول والروملی ولما استولى على « اكريبوز » منح رتبة القائد البحري من الدرجة الثالثة .

(١) المفهوم من كتب التاريخ ومن رحلة ابن بطوطة ان سوق العلم في الاناضول كانت رائجة جداً سواء في عهد السلاجقة او في عهد الامارات التي قامت على اطلالها فكان في كل قرية مكتب للاطفال كما كان معظم المدن والقرى زاخراً =

المدارس ويناقشهم في المواد التي يدرسونها ويسألهم عن المتفوقين من طلبتهم ليكافئهم . جاء في الشقائق : سأل السلطان محمد الفاتح ذات يوم المولى خسرو قائلاً : « من هو أنبغ طلبتك ؟ » فأجاب : محي الدين محمد الشهير بمخنيسا زاده وأثنى عليه كثيراً . فكرر السؤال قائلاً : « ثم من ؟ » فأعاد المولى خسرو الجواب قائلاً : « مخنيسا زاده أيضاً » ، قال الفاتح : هل مخنيسا زاده اثنان حتى رددت على سؤالى بجواب واحد (١) فقال المولى خسرو : كلا يامولاي مخنيسا زاده واحد ، ولكن واحد عدّ بألف . وبناءً على هذه التذكية عينه مدرساً لمدرسة وزيره محمود باشا ثم مدرسته نفسه ونصبه بعد ذلك قاضى العسكر .

خلاصة القول : ان السلطان محمدا الفاتح بثقافته الرفيعة وشغفه بالعلم وحبّه الشديد للحكمة وفق كل التوفيق لتحويل بلده الى منبع العلم وينبوع الحكمة (٢)

= بالمدارس ودور الحفاظ والمؤسسات العلمية . والطلبة الذين يتمون دراستهم في هذه المدارس كانوا يقصدون الى مراكز علمية كدمشق والقاهرة للاستزادة من العلم والثقافة . وبعد انشاء محمد الفاتح مدارس الثمان في استانبول قلت هذه الرحلات العلمية .

(١) ولا يخفى ما في هذا السؤال والجواب من اللطف والدقة .

(٢) يقول المؤرخ على مؤلف كنه الاخبار مامعناه : « كان السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية يحترم العلم والعلماء ويشمل برعايته السامية من يرد عليه منهم من بلاد العرب والعجم فقد أنشأ في القسطنطينية مدارس الثمان العالية وبها تحولت بلاد ازروم الى منبع العلوم والحكمة واغنت طلاب العلم وعشاق المعرفة عن تجشم مشاق الرحلة الى بلاد بعيدة لاستكمال دراستهم وزيادة ثقافتهم ... » ج ١ ص ٣٧

وبعد ان حكم هذا العاهل الكبير نحو ثلاثين سنة حقق فيها من جسام الاعمال ما تضيق به العصور وفتح عهداً جديداً في العالم ، انتقل من استانبول الى « اسكدار » في اليوم السادس والعشرين من صفر سنة ٨٨٦ هـ على رأس جيش عظيم بالرغم من مرضه ولما وصل الى « ككبوزه » اشتد به المرض في المكان المسمى « تسكور چايرى » فتوجه الى الله توجهاً كلياً بلسانه وقلبه حتى التحق بالرفيق الاعلى . (١)

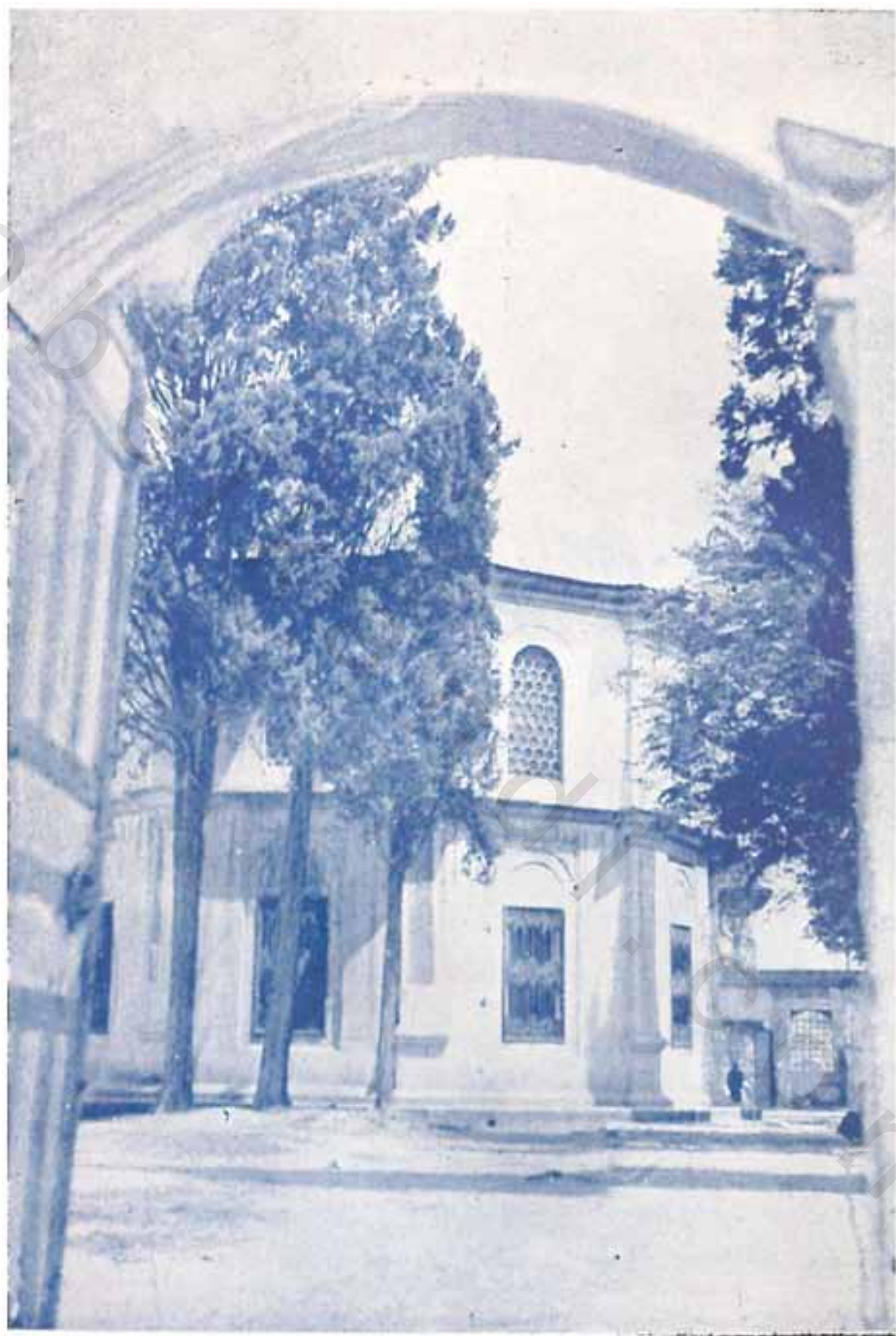
لم تعلم الجهة التي قصدها المفغور له بسفره هذا فكان من عادته رحمه الله كتمان حركاته العسكرية . وقد وصف عاشق باشا زاده وفاته في ابيات مؤثرة جداً يفهم منها انه راح ضحية أخطاء (*) الاطباء الذين قاموا بعملياته . وفي الحقيقة ان الذى يقرأ هذا الوصف المؤثر الذى يصف به عاشق باشا زاده وفاة السلطان محمد الفاتح يخالجه الشك فى كون وفاته طبيعياً . ويؤيد هذا الشك ما ذكره صاحب الشقائق النعمانية فى ترجمة الطبيب اللارى والطبيب يعقوب اللذين توليا مداواة السلطان فى اثناء مرضه الاخير ونقل ترجمتهما من الشقائق فيما يأتى :

(١) ولما بلغ نعيه مصر كتب المؤرخ المصرى ابن اياس يقول :

« وفى ربيع الأول جاءت الاخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد الغازى ملك الروم وصاحب القسطنطينية العظمى وهو محمد بن مراد بن محمد . . . وكان ملكاً جليلاً عظيماً ساد على بنى عثمان كلهم وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق وحاز الفضل والعلم والعدل والسكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الاقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها وكان نائب مملكة الروم فى حياته ابيه ثم استقل به من بعده ومكث به مدة طويلة تزيد عن احدى وثلاثين سنة . . . الخ

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(*) الناس يلحون الطبيب ولما غلط الطبيب إصابة الأقدار
ابن الرومى



منظر جانبي لضريح السلطان محمد الفاتح

المولى حكيم يعقوب

« العالم العامل يعقوب الحكيم كان طبيباً ماهراً في الطب غاية المهارة وبذلك تقرب عند السلطان محمد خان وكان يهودياً وجعله السلطان محمد خان حافظاً للدفتري بالديوان العالى وهو اليهودى ثم اسلم واستوزره السلطان محمد خان ولما صار محمد باشا القرماني وزيراً للسلطان محمد خان حسد واتفق في ذلك الايام ان مرض السلطان محمد خان فعالجه يعقوب وذكر محمد باشا عند السلطان الحكيم اللارى ورغب في الدخول عليه فلما دخل هو عليه عاجل خلاف معالجات يعقوب وغيرها وضعف السلطان محمد خان فاستدعى الحكيم يعقوب ولما رأى الحكيم يعقوب وعرف انه غير قابل العلاج بعد هذا لم يتكلم بشيء وصوب رأى الحكيم اللارى ولم يلبث السلطان إلا قليلا حتى مات اسكنه الله جناته وادخله محل رضوانه »

الحكيم اللارى

« العالم العامل والفاضل الكامل الحكيم العجمي اللارى ارتحل الى بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان محمد خان كان ماهراً في الطب الا انه انخطأ في متابعة رأى الوزير محمد باشا ومطاوعته هواه في معالجة السلطان كما حكيناه آنفاً (أى في ترجمة الطبيب يعقوب) سمعت هذه القصة عند السيد ابراهيم الآماسى المتوطن بجوار مزار ابى ايوب الانصارى »

وهذه النصوص التاريخية تدل على ان محمداً الفاتح مات في ظروف غامضة ولست ادري هل يوفق التاريخ لجلاء هذا الغموض وتبيين موقف الوزير محمد باشا القرماني من هذا الحادث او يظل سرا مكتوماً في ضمير الغيب؟ والله اعلم .